هذا ما يريد الله أن يفعله بالذين يُحبّهم

عظة الأحد بعد رفع الصليب المكرّم

القدّيس صوفيان المعترف

إنّ هذه العلامة المقدّسة التي أصبحت أداة خلاصنا، تتكوّن من ذراعَين -إحداهما طويلة والأخرى قصيرة- تتقاطعان فتُشكّلان صليبًا كما تعلمون. إذا وقف الواحد منّا، نحن البشر، على نحوٍ مستقيمٍ ورفع ذراعيه، فإنَّه يُشكِّلُ بوضعيّة جسده صليبًا. إنّنا لا نرتديه فحسب، بل نكون نحن أنفسنا على شكل الصليب المقدّس. لذا، عندما نسجد أمام الصليب المقدّس، نتذكّر أن نرسم إشارة الصليب على نحوٍ صحيح، أي بحركتَين: عموديًّا "باسم الآب والابن" الذي تجسّد، "والروح القدس" الذي هو قوّة الألوهيّة في العالم وعملها على المستوى الأفقيّ لعالمنا الأرضيّ.

وعلى نحوٍ مماثل، حياتنا صليبٌ تُمثِّلُ فيه الذراع الطويلة طريقنا في العالم، مع خططنا وأفكارنا التي ترافقنا طول حياتنا. والذراع القصيرة التي تُكمل الصليب هي إصبع الله الذي يرسم خطًّا يتقاطع مع طريقنا ويقلب خططنا البشريّة، فيُؤلّف بذلك صليبَ الآلام الذي كلُّ إنسانٍ مَدينٌ بحَملِه خلال حياته. أأراد المرء ذلك أم لا، لا مفرّ لكلّ واحدٍ منّا من هذا الصليب.

إن الألم والصعوبات التي يخشاها الكثير من الناس – وعندما تصيبهم يبكون ويحاولون القيام بشتَّى أنواع المناورات للهروب منها – يضعُها الله تحديدًا في حياتنا لأنسَنتِنا، وتشكيلنا، وجعلنا أفضل وأكثر صدقًا وصبرًا على الألم، وربّما أكثر فهمًا لألم الآخرين، لأنّ الذي لا يتألّم لا يفهم آلام الآخرين. وكما يقول الناس، "من لم يتذوّق المرارة لا يعرف ما هي الحلاوة". الألم هو كالإزميل في يد نحّاتٍ ماهر، به يُشكّل صورةً أو شيئًا قيّمًا جدًّا من الرخام أو الحجر. هذا ما يريد الله أن يفعله بالذين يُحبّهم، لأنّه يسمح عادةً بأن يصيب الألم أولئك الذين يحبّونه، وكثيرًا ما يتعثّر هؤلاء عندما يتألّمون على الرغم من أنَّهم يحيون حياةً بارّة -

سنتحدّث أكثر عن هذا الأمر. إذًا، الألم دواءٌ أو عمليّةٌ جراحيّة لجسدٍ يُحتَضر ويجب بتر أطرافه لإنقاذ حياته.

أيّها الإخوة والأخوات في المسيح، قوموا بهذه التجربة عندما تختبرون صعوبةً ما، أيًّا يكُن نوعُها - لأنّ كلّ شخصٍ لديه صعوبةٌ أو أكثر تلتصق به كما يلتصق به ظلُّه. بدلًا من أن تثوروا، حاولوا خلال هذه الصعوبات أن تصلّوا لكي يمنحكم الله الصبر، وسترَون الراحة التي ستشعرون بها في حياتكم إذا فكّرتم في أنّ ما أعطيتُموه كألمٍ هو من أجل خطاياكم. وفكّروا أيضًا في كلّ سوءٍ اقترفتموه وتوبَّخون عليه الآن بالألم. إذا لمتُم أنفسكم التي هي سبب الألم –على أنّكم ارتكبتُم خطأً أو آثامًا أو إساءات أو تجاوزات ونسيتُموها- تفكَّروا في ذلك حتّى تستطيعوا تذكّرها، وتوبوا وصلّوا أن يُغفر لكم، وسوف تشعرون براحةٍ حقيقيّةٍ وعظيمةٍ في قلبكم وكيانكم. عادةً ما تعمل فينا النعمة الإلهيّة على هذا النحو إذا فحصنا ضميرنا وتُبنا توبةً صادقة، ثمّ عهدنا إلى الله بغاية حياتنا وما تبقّى منها، مُصلّين في أذهاننا صلاةً قصيرةً مثل هذه: "يا ربّ، أعلم أنّكَ تُرتّب كلّ الأشياء لمنفعتي. حتّى لو لم أفهم ما تفعله بي، أُصلّي ألّا تتخلّى عنّي مطلقًا وأن تساعدني، حتّى أتمكّن دائمًا من العمل بمشيئتك المقدّسة في حياتي".

مع ذلك، ثمّة جانبٌ آخر يجب أن نواصل مناقشته. ثمّة مسيحيّون يحيون حياةً صادقةً ويقِظة – ذكرتُ لكم هذا. إنّهم يجدّون في عمل الخير، ويصلّون ويصومون ويساعدون المحتاجين. مع ذلك، ينالون نصيبهم من الضيقات. هؤلاء يضطربون على نحوٍ خاصّ عندما يرون آخرين يرتكبون آلاف الأعمال السيّئة، وكلّ شيءٍ يجري حسَنًا في حياتهم. يجب ألّا ينسى هؤلاء المسيحيّون أنّ النجاح والفرح المكتسبَين في الحياة من خلال الخطيئة لا يستحقّان الحسَد، لأنّ كلّ خطيئةٍ نقترفها في هذه الحياة سندفع ثمنها. إنه دينٌ يجب سداده - إمّا أن ندفعه هنا أو هناك. من الأفضل لنا أن ندفعه هنا من خلال الألم والصعوبات لأنّ كلّ إساءةٍ وخطيئةٍ يرتكبها الشخص في هذه الحياة الأرضيّة ترتدّ عليه طبيعيًّا - الآن أو لاحقًا، وعادةً في لحظةٍ لا يتوقّعها قد يُصابُ هذا الإنسان بمرضٍ في الجسد أو النفس، أو بالألم، أو الفقدان، أو الإهانة، أو حتّى بالموت غير المتوقّع، الموت بلا أملٍ في الخلاص.

إنّ الصالحين، ولو كانوا متيقّظين في حياتهم الشخصيّة، لا يمكنهم أن يبقوا بلا خطيئة. قد يتغلّب عليهم الجشع أو الحسد أو الكبرياء أو الخطايا الخفيّة الأخرى. ولا يكون عملهم الصالح الخارجيّ نقيًّا كما ينبغي له أن يكون أمام الله الذي يرى ما في داخلنا. هكذا، فإنّ الله الذي يُقدّر غيرتهم، يوبّخهم ويؤدّبهم من خلال الألم، لكي، من ناحية، يتحقّق من إيمانهم به، ومن ناحيةٍ أخرى، يساعدهم على أن يكونوا أفضل، وأكثر تواضعًا وصبرًا وتفهُّمًا لألم الآخرين وضعفاتهم.

‡ ***حاشية للمترجم إلى الإنكليزيّة:*** *رقد القدّيس صوفيان في الربّ خلال ترتيلة التريصاجيون (قدّوس الله...) في قدّاس عيد رفع الصليب المقدّس في 14 أيلول 2002. إنّه أوّل قدّيس رومانيّ من القرن الواحد والعشرين، وشهادة على إمكانيّة القداسة حتّى في ظلّ صعوبات عصرنا.*

‡ ***حاشية للمترجم إلى العربيّة:*** *عيّن المجمع المقدّس في الكنيسة الرومانيّة عيد القدّيس صوفيان في 16 أيلول من كلّ عام. والجدير بالذكر أنّ صلةً تجمعه بكنيسة أنطاكية، إذ زار لبنان وسوريا لرسم الأيقونات في الكنائس والأديار، ورسمَ جداريّات كنيسة دير القدّيس جاورجيوس- دير الحرف في أوائل السبعينيّات، وأسهم مع الأرشمندريت أندريه سكريما في تأسيس الرهبنة في هذا الدير (نقلًا عن الرسالة الرعائيّة للمتروبوليت سلوان (موسي) لمناسبة إعلان قداسته).*

Source: Saint Sofian the Confessor of Antim Monastery (–). “This is what God wants to do with those He loves”. *Sayings of the Romanian Elders.* Substack.